

بين الجبائية والهداية

(إنما تقوم الحكومات في الأصل لتعكم بالحق والحكمة ، ومن هنا كان اشتقاق اسمها من الحكومات تفرقت بها السبل ، فالكثير منها صار الجبائية وحدها تستغل وتجمع وتكثف ظالمة . فتشيع بذلك روح النمرود والجبانة والاممال ! . .)

ولقد بعث الله بالاسلام محمدا صلوات الله عليه هاديا لاجابيا . ومقيمت الهداية فقد ضمنت الجبائية دون ان تقصد . وما تمتع به الأخبار وزادوا عليه رضا الله . وتاريخ الاسلام يفيض بأروع الامثال في عفة الحاكمين وعدالة القائدين وزهد القادرين . ولن يصلح الأمر اليوم إلا بما صلح به ادله لو كانوا يفتلون .)

المر باصم

بين الجباية والهداية

الدول والحكومات قسماً ، دولة شعارها الجباية ، ودولة شعارها الهدا وكل لها طابع خاص ونفسية خاصة ، ورجال ممتازون ، ولكل نتائج متميزة فيوزان الأشياء . ومناط الأحكام في دولة الجباية هو تضخم الميزانية وكثرة الدخل والإيراد ، ورفاهية رجال الحكومة واحتفال الحضارة وزهو المدينة ، وإن كان ذلك بامتصاص دماء الفقراء وشقاء الفلاحين والعملة والضرائب المجحفة والمكوس المرهقة ، فلا يعز هذا الضرب من الحكومة إلا بما يزيد في مواردها ومالياتها ، وبما يهيئ لها أسباب الفخار والزينة والآلة وبما يهيئ للامراء والوزراء وأبنائهم وأبنساء أبنائهم والمتصلين بهم ورجال الحكومة وأسرهم وخدمهم أسباب الترف والتنعيم والبلخ ، وبما يبنون به قصوراً فاخرة ، ويشترون به أملاكاً واسعة في داخل البلاد وخارجها .

تغفل هذه الحكومة تربية الجمهور الدينية والخلقية وتعطل الحسبة والرقابة على الأخلاق والنزعات وتتغافل عن كل ما ليس بسيلها وما لا يجر عليها فائدة مالية أو قوة سياسية ، وقد تبيع مذكراً أو محرماً إذا كانت نجحى منه نفعا وتحرم مباحاً إذا كانت تخاف منه خطراً سياسياً أو خسارة مالية ، ولا يزال الجشع والنهامة للمال تدفعها وتزين لها خطتها حتى تفرض ضرائب على العبادات وعلى الموت والحياة . وهكذا تتحول من حكومة ساهرة على مصالح الجمهور وراحتهم ومن مربية وحارسة للامة إلى شركة تجازية كبيرة لا يهتمها إلا جمع الأموال وزيادة الأرباح .

أما الدولة التي شعارها الهداية فمهمتها الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومعيارها تحسن أخلاق الجمهور وسمو روحهم وتحليلهم بالفضائل وإقبالهم على الآخرة وزهدهم في الدنيا والقناعة في المعيشة واجتنابهم المحرمات والمعاصي وتنافسهم في الخيرات ، ولو كان ذلك على حساب ميزانيتها وخسارة مالياتها ، فتنب الواعظ وترسل الدعاة وتشجع الحسبة وتمنع الخمر وتسكن على الفجور ، وتحرم الملامى والمعازف ، وتطارد المشتهرين والخلعاء ، وتمنع كل

يفسد على الناس عقيدتهم وأخلاقهم ، ويفسد الحياة المنزلية ، وتقص في حكمها المساجد وتفقّر الخانات ، ويزدهر الدين والتقوى ، وتضمحل المعاصي والجنايات ويقوم أهل الدين والصلاح وينشطون ويتحمسون ، ويتوارى الفجار والملحدون وينكمشون . ويكون ما وصفه الله تعالى ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور .

تمتاز مملكة حكومة الهداية بأسرها عن مملكة حكومة الجباية بأسرها . تمتاز عنها في النزعات والروح . والسيرة والمعاملة والسلوك . فترى في الأولى التطوع والاحتساب . وروح الخدمة والآثار والأمانة والتضحية والوفاء . بينما ترى في رجال حكومة الجباية معاكسة القانون ورجاله والاجتهاد في معاجزته والتفلسف منه . والكبر والتجبر والآثرة والخيانة والنفاق والزور وفشو الرشوة إلى حد يدعو الإنسان بين الركن والمقام أن لا يتلى بهم ، فلا ينال الإنسان حقه من العدل والراحة ولا يتمتع بحقوقه المدنية إلا إذا رضى من ماله لهذا وقدم طعمة لذلك . ويستحفل الأمر ويحل الخطب حتى لا يرى أحد في هذه الحكومة أنه خادم أمة وأمين حكومة . لا يعد نفسه إلا جانياً — ولكن لنفسه وعياله — قد منحه الحكومة فرضه جمع الأموال فلا يريد أن تفلته هذه الفرصة ويتخلف عن قافلة الجباة الشخصيين وقد اشتد بها الجدد وجد بها السير .

لقد سبق في التاريخ أمثلة لكل من حكومات الجباية والهداية . أما حكومات الجباية فلا تحتاج إلى تمثيل ولا إلى شرح وبيان . فإنها هي السائدة الفاشية في الماضي والحاضر وفي الشرق والغرب . وقد جربها الإنسان وعرفها في كل عصر . أما حكومات الهداية فهي نادرة جداً . فلنضرب لها مثلاً .

بعث محمد ﷺ فدعا الناس إلى الاسلام فالتفت حوله د فنية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ان ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لو لا يأتون عليهم بسلطان بين . فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً . . وكان هؤلاء الفتيان هدف كل قسوة وظلم واضطهاد وبلاء وعذاب وقد قيل لهم من

قبل ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . . فصمدوا لكل ما وقع لهم وثبتوا كالجبال وقالوا ، هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله . حتى أذن الله في الهجرة ، ولم تزل الدعوة تشق طريقها وتوقى أكلها حتى قضى الله أن يحكم رجالها في الأرض ويقيموا القسط ويخرجوا الناس من الظلمات الى النور ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا الى سعتها . فقد عرف أنهم اذا تولوا وسادوا ، أقاموا الصلوة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . .

وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة كما تأتي الأمطار بالخصب والزرع وكما تأتي الأشجار بالفاكهة والثمر ، فلم تكن هذه الحكومة الا ثمرة من ثمرات هذه الدعوة الاسلامية . ولم تكن هذه العزة والقوة الا نتيجة ذلك العذاب الذي تحملوه من قريش وغيرهم وذلك الهوان الذي لقوه في مكة وغيرها .

جاءت الحكومة بما يتبعها من عزة وشوكة ورجال وأموال وكنوز وخزائن وجباية وخراج ورفاهة ونعيم وكان الجمال واسعا جدا لجمع الأموال وحكم الرجال ورفاهة الحال اذا اختاروا طريق الملوك والسلاطين في فرض الضرائب الكثيرة والاناوات المتنوعة والمكوس الجائرة .

التفت القوم فاذا دولتهم الوليدة على مفترق الطرق — طريق الجباية وطريق الهداية . هنالك سمعوا هاتفا يقول : ويحكم ان محمدا ﷺ لم يبعث جاييا وإنما بعث هاديا وأنتم خلفائه . . فلم يترددوا في ايثار جانب الهداية على جانب الجباية واتخاذ الدعوة والهداية شعارا ومبدأ لحكومتهم فكان ذلك .

لقد علموا أنهم لو آثروا جانب الجباية وأطلقوا أيديهم في أموال الناس واسترسلوا الى النعيم ورتعوا في اللذات لم يحل بينهم وبين ذلك أحد ولم يقف في سبيلهم واقف . ولكنهم علموا أنهم لو فعلوا ذلك لقد غشوا اخوانهم الذين سقوهم بالايمان وقضوا نحبهم بدون أن يأكلوا ثمار غرسهم ، لقد خانوا أولئك الذين لم يعرفوا إلا الجهاد والتعب والجوع والسغب ولقد وصلوا الى الحكومة

على جسر من متاعهم وإيثارهم . أفيجوز لهم أن يستغلوها لمصلحتهم وشهواتهم وأبنائهم وأقاربهم ويتمرغوا في النعيم ويسرفوا في الأكل والشرب ؟ لقد ظلوا إذن عثمان بن مظعون وحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وسعد بن معاذ وكثير بن رقةم الذين لم يروا شيئا من الفتوح والغنائم ولم يشبعوا أياما متوالية ، وقف القوم ولم يطب لهم الأكل والشرب وأرادوا أن يلحقوا بأخوانهم ولم يأخذوا من الدنيا إلا البلاغ .

تأسست دولة الاسلام وفتحت فارس وبلاد الروم والشام ونقلت الى عاصمة الاسلام - المدينة المنورة - كنوز كسرى وقبصر وانصبت عليها خيرات المملكتين العظيمتين وانها على رجالها من أموال هاتين الدولتين وطرغها وزخارفها ما لم يدور قط بخلدكم ، وقد انقضى على اسلامهم ربع قرن وهم في شدة وجهد من العيش وفي جشوبة المطعم وخشونة الملبس ، لا يجدون من الطعام الا ما يقيم صلبهم ولا من اللباس الا ما يقيهم من البرد والحر ، فاذا بهم اليوم يتحكمون في اموال الابطار والاكاسرة فاذا اراد الواحد منهم ان يلبس تاج كسرى وينام على بساط قيصر لفعل ، لقد كانت والله هذه محنة عظيمة تزول فيها الجبال الراسيات وتطير له القلوب من جوانحها وتمش له العيون ، ولكنهم سرعان ما فطنوا انهم ما وقفوا بين الفقر والغنى فحسب ، بل انهم خيروا بين ان يتنازلوا عن دعوتهم وإمامتهم ومبادئهم وينفضوا منها يدهم فلا يطعموا فيها ابدا ، وبين ان يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية وعلى سيرة رجالها اللاتفة بخلفاء الأنبياء والمرسلين رحمة الدعوة المؤمنين المخلصين .

كان لهم أن يؤسسوا ملكا عربيا عظيما على أنقاض الدولة الرومية والفارسية وينعموا كما نعم ملوكها وأمرائها من قبل فقد ورثوا إمبراطوريتين ، الفارسية والرومية ، وجعروا بين موارد دولتين . فاذا كان كسرى يترفع بموارد فارس فقط وإذا كان هرقل يبدخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكنه أن يترفع بموارد الإمبراطوريتين ويبدخ بدعالم يبدخه أحدهما .

كان له ولاصحابه كل ذلك بكل سهولة ، ولكنهم سمعوا القرآن يقول ذلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين ،

وكانهم يسمعون نبيهم ﷺ يقول قبل وفاته : لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتهلككم كما اهلكتهم ، فتهفوا عن آخرهم قائلين

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للانصار والمهاجرة وهكذا حافظوا على روح الدعوة الاسلامية وسيرة الانبياء والمرسلين وعاشوا في الحكومة كرجال الدعوة . وفي الدنيا كرجال الآخرة ، وملكوا انفسهم في هذا التيار الجارف الذي سال قبلهم بالمدينيات والحكومات والشعوب والامم ، وسال بالمبادئ ، والاخلاق والعلوم والحكم .

ما زال الناس يعدون اقحام المسلمين دجلة بخيلهم وجندهم تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ووصولهم إلى الشط الثاني من غير ان يصابوا في نفس اموال او متاع حادثا غريبا من اغرب ما وقع في التاريخ . إن الحادث لغريب ولكن اشد منه غرابة وأدعى للعجب ان المسلمين في عهد الخلافة الراشدة وعصر الفتوح الاسلامية الأولى خاضوا في بحر مدينة الروم ومارس وهو مانع هائج وعبره ولم يفقدوا شيئا من اخلاقهم ومبادئهم وعاداتهم ووصلوا إلى الشط الثاني ولم يتبدل ثيابهم ، ولم يزل الخلفاء الراشدون وامراء الدولة الاسلامية من اصحاب النبي ﷺ محتفظين بروحهم ونفسياتهم وزهدهم وبساعتهم في المعيشة وتحشيمهم في أوج الفتوح الاسلامية .

حكى الطبري دخول الهرمزان المدينة ومواجهته لعمر رضي الله عنه ، قال : هبوا الهرمزان في هيئته فألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب ووضعوا على رأسه تاجا يدعى الآذين مكلا بالياقوت وعليه حلته كما يراه عمر والمسلمون في هيئته ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر في منزله فلم يجدوه فسألوا عنه ، فقيل جلس في المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة ، فانطلقوا يطلبونه في المسجد فلم يروه ، فلما انصرفوا مروا بغلمان من أهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم : ما تلهوكم تريدون أمير المؤمنين ؟ فانه نائم في ميمنة المسجد متوسدا برنسه ! وكان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس ، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلوه فزع برنسه ثم توسده فنام . فانطلقوا ومعهم النظارة حتى إذا راوه جلسوا دونه : فجلس في المسجد نائم ولا يقظان غيره . والدرة في يده معلقة ، فقال الهرمزان :

أين عمر؟ فقالوا: هو ذا! وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه وأصغى الهرمزان إلى الوفد فقال: أين حرسه وحجابه عنه؟ قالوا: ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان! قال قنبغى له أن يكون نبيا، فقالوا: بل يعمل عمل الأنبياء. وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالسا ثم نظر إلى الهرمزان فقال: الهرمزان؟ قالوا: نعم! فتامله وتأمل ما عليه وقال أعوذ بالله من النار واستعين الله؛ وقال: الحمد لله الذى أذل هذا وأشياعه، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واعتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة فقال الوفد هذا ملك الأهواز. فسلمه، فقال: لا حتى لا يبقى عليه من حليته شيء فرمى عنه بكل شيء عليه إلا شيئا يستره وألبسوه ثوبا صفيقا فسلمه (١).

ويصف ضرار بن ضمرة على ابن أبى طالب فى خلافته بعد وفاة على لمعاوية فيقول: يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خدن ومن الطعام ما جشب، كان والله كأحدنا ينجينا إذا سألناه: ويبتدئنا إذا أتينا، وإذا دعونا، يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوى فى باطله ولا يياس الضعيف من عدله، وأشهد بالله لقد رأيت فى بعض موافقة وقد أرخى الليل سجوفه وغارت نجومه. وقد مثل فى محرابه، قابضا على لحية يتملبل تملل السليم ويبكى بكاء الحزين، وكأننى أسمعه وهو يقول: يا دنيا، أبى تعرضت أُملى تشوفت هيات هيات غرى غبرى، قد تبينك ثلاثا لا رجعة لى فىك، فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير. آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشه الطريق (٢).

كان شعار الدولة الإسلامية الأولى الهداية والدعوة إلى الله وخدمة الناس فكانت الدولة تخسر أموالا عظيمة فى سبيل الاخلاق والدين، وكانت إذا خيرت بين أرواح الرجال ومبالغ من المال اختارت الأرواح وخسرت الأرباح، وتطلب بذلك نفسا وتقربه عينا، وإذا كان هكس ذلك فكسبت الأموال وخسرت الرجال، حزنتم لذلك وحببن المسلمين كحزنهم على ملك زائل وسلطان راحل.

١ — تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢١٧.

٢ — صفة الصغرة لابن الجوزى ج

وقد فضل الخلفاء الراشدون وخامسهم عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن يدخل
المجوس والنصارى في الاسلام ويعفوا من الجزية فيخسروا مال المسلمين مقدارا
عظيما من المال ويكسب الدين الاسلامي والامة الاسلامية رجالا يتخلصون من
النار . وإذا كسب وبيع بيت المال على حساب الاسلام حزنوا حزنا شديدا .

حدث الطبري عن زياد بن جرة الزيدى ، قال : جمعنا في مصر ما في أيدينا
من السبايا واجتمعت النصارى ، لجعلنا تأتي بالرجل من في أيدينا ثم نخيره بين
الاسلام وبين النصرانية فإذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا
حين تفتح القرية . قال ثم نحوزه إلينا . وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى
ثم حازوه إلهيم ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه
رجل خرج منا إلهيم (١) .

وهكذا انتشر الاسلام وانتشرت الاخلاق الفاضلة في عقود من السنين
من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وتغلغلت الدعوة الاسلامية في أحشاء المجتمع
البشرى ، لم يتمتع العالم الاسلامى بخلافة عمر بن عبد العزيز إلا سنتين وبضع
شهور ولكنه بحرصه على الدعوة وحافظته على شعار الهداية وسيرة خلفاء
الانبياء عليهم السلام تمكن من التأثير في القلوب والعقول ، وقلب تيار المدينة
وأظهار الدين واتحاد الكفر والفسق والقضاء على رسوم الجاهلية ما لم تتمكن
منه دول اسلامية طويلة الأعمار لتراوحها بين الهداية والجباية وتفضلها الجباية
في أكثر الأحيان على الهداية .

وكانت المدن الاسلامية الكبرى وعواصم الاسلام مركز دعوة وهداية
بحيث إذا دخلها الانسان عرف أنه يعيش في مركز الاسلام ويتنفس في جوه فيرى
الحدود قائمة وأحكام الشرع نافذة ، ولا يجد أحدا يتهاون في أمر من أمور الدين
ويستخف به أو يجاهر باثم ومعصية ، ولا يرى بدعة ولا فجورا ولا دعة ولا
خدعة ، ولا يسمع رشوة ولا خيانة ولا ما ينافى روح الاسلام ، ويسمع الدعوة
الى الله وإلى الدار الآخرة وإلى الفضيلة والتقوى واتباع الكتاب والسنة والاجتناب
من الشرك والبدعة والتمسك بفضائل الدين في كل مكان ويرى العمل بذلك في

الطرق والمجامع ويوت الناس ودواوين الحكومة ، فيشبع بروح الدين ويتضلع إيماناً وحامسة وفقها في الدين ومعرفة بأحكامه وشرائعه وجبالاهله ، فلا يخرج إلا وقد استفاد الايمان والعلم والتصلب في الدين والثقة برجاله ومثليه ، وإذا دخلها اجنبي أو حديث عهد بالاسلام عرف مزايا الحياة الاسلامية وفضل حكومة الاسلام وآثر الإقامة فيها وكره ان يفارقها ويعود إلى دار الكفر كما يكره أن يقذف بالنار .

أما الحرمان فقد كان في الاسلام — المؤسسة على مبدأ الهداية — مدرسة الدين ومهد الحضارة الاسلامية تتمثل فيها الحياة الاسلامية بكالها وجمالها وبأقاليها المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الاسلامي ومن كل فج عميق فيشهدون منافع لهم ويتفقهون في الدين ويتذرون قومهم اذا رجعوا اليهم ، ويحتجون في بلادهم بما رأوه في الحرمين فيكون ذلك حجة لمحافظة الحجاز على الدين والسنة وحرص حكومتها على تمثيل الحياة الاسلامية في مركز الاسلام ومنبعه ،

ثم أتى على المسلمين حين ن الدهر فسوا أن الحكومة في الاسلام لم تكن إلا جائزة الدعوة والجهاد في سبيلها . ولولا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته الى الله ، وما لقي في مكة والطائف من قريش والقبائل ، ولولا الهجرة والاختفاء في غار ثور والرباعية المكسورة يوم أحد ، ولولا ماضع بحمزة يومئذ ، ولولا قتلى بئر معونة ومصلوب الانصار ، (١) لما دانعت الدنيا للعرب ولا كانت دمشق ولا بغداد ، ولا كان لبني مروان أن يجربوا خراج الروم وفارس ، ولا كان للرشيدين أن يقول لسحابة مرت به : أمطري حيث شئت فسيأتي خراجك .

أسس ملوك المسلمين بعد الخلافة الراشدة دولهم على مبدأ الجباية والسياسة ، وأهملوا الدعوة إلى الله وإلى دار السلام وعطلوا الحدود وأبطلوا الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، ولم تعد مراكر

(١) هو خبيب بن عدي بن مالك الذي قتله بنو الحارث بن عامر وبضعوا لحمه

وحملوه على جذعة وهو القائل :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرمي

الإسلام مدرسة الدين ومرآة لمدينته واجتماعه بل أصبحت تفرس الشك والنفاق في قلوب الوافدين وتزعزع عقيدتهم وثقتهم بالدين وادله ، واصبح القاصدون من مختلف أنحاء العالم الاسلامي يكتسبون منها استخفافا بشعائر الاسلام ورقة في الدين ووهنا في العمل وسوء ظن بمثلئ الاسلام ، ورجعوا محتجون بالآوضاع الفاسدة في مراكز الاسلام وبالفوضى الدينية فكانت داهية عظيمة على رجال الاصلاح والدعوة في الأقطار الاسلامية وفتنة كبيرة .

ليس العالم الاسلامي اليوم بأشد افتقاراً الى شيء ، منه الى حكومة تمثله تمثيلاً صحيحاً ونقوم على أساس الدعوة والهداية والنصيحة والخدمة فان الاسلام لا يؤثر في عقول الناس ولا يشفي المتفحصين حتى تكون له رقعة في الارض تمثل فيها حياته وتتجلى فيها مدينته واجتماعه وتظهر فيها نتائج دعوة وتعاليمه ، فاذا كان ذلك ولو في رقعة صغيرة كان على الاسلام اقبال عظيم لم يبعد من قرون .

وليس العالم الانساني بأقل افتقاراً من العالم الاسلامي إلى مثل هذه الحكومة الى شعارها الهداية والاصلاح ، لا الجباية والكفاح ، فإن الانسانية العلية جريحة لايسعفها اليوم الاقيام هذه الحكومة التي تنأسس على أساس الفضيلة والدين واحترام الانسانية ، وإيثار الأرواح على الأرباج ، والاخلاق على الأعلاق وكسب الرجال على كسب الاموال ؛ فاذا تأسست هذه الحكومة — مهما كانت صغيرة ومهما كانت مواردها ضيقة — كان ذلك حادثاً غريباً يستحق كل تنويه وإشادة ، وقام كبار السياسيين وأصحاب البراع وقاده الفكر يشيرون اليها بالبنان ويضربون بها الأمثال ، ويؤلفون عنها مؤلفات وأصبح الناس يأوون اليها كما يأوى الغرقى إلى جزيرة في البحر ، لينعموا في ظل حكومتها وينفضوا عنهم غبار الظلم والفتن ويتنفسوا من متاعب المدينة المعقدة المزورة ، والحكومات الجارية الجائرة ، ولما كانت هذه الحكومة غرة في جبين الدهر وشامة بين الحكومات والدول .

إن الانسانية قد جربت حكومات الجباية على اختلاف أنواعها وأسماؤها — من شخصية وديمقراطية ورأسمالية واشتراكية — فوجدتها بنات حلات لا تختلف

في اصلها ومبدئها وروحها ونزعتها ، وقلبتها على كل جانب فلم تر منها إلا شرا
ومرا ولم تر اختلاف الاسماء يغني عن شيء ، وإذا تأسست جديدة باسم جديد
نادى لسان الحقيقة في لفظ أبي العلاء المعري :

ألا إنما الأيام أبناء واحد وهذه الليالي كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذي مرت به السنوات

وإذا أضيفت الى هذه الحكومات المحدودة بالثبات حكومة جديدة لاتختلف
عن أخواتها إلا أنها يرأسها مسلم أو يديرها عدد من المسلمين لم تكن بدعا ولم
تكن شتبا طريقا ينوه به أو يشار إليه بالبنان ، أو تعقد به الآمال ، فإن هنالك
حكومات تفوق هذه الحكومة عشرات من المرات في طول مساحتها وضخامة
ميزانيتها وكثرة إنتاجها وإصدارها وفي جيشها وأساطيلها وبوارجها الحربية وعدد
الطائرات وكثرة المصانع ورفق الصناعة والتجارة واحتفال المدينة والحضارة
وحسن الإدارة وانتشار العلم في طبقات الشعب وقلة الأمية إلى غير ذلك مما تمتاز
به الحكومات الأوربية .

إن قيام دولة للمسلمين في بقعة من بقاع الأرض فرصة سعيدة نادرة لاتسحق
كل حين ، ومثل هذه الفرص - كما يعرف المطلع على السنن الإلهية وعلى تاريخ
الاديان والدعوات الإصلاحية - قد تسحق بعد قرون ، وتكون من فترات الدهر
وفي قصرها كوميض البرق في ليلة مظلمة ، وتكون امتحانا عظيما لرجالها كيف
يستخدمون هذه الفرصة لدعوتهم ومبادئهم الدينية على حساب مصالحهم الذاتية
وراحتهم ولذائذهم ، فإذا اتهموا هذه الفرصة وعرفوا قيمة الوقت وأحسنوا تمثيل
هذه العقيدة والدين الذي ينتسبون إليه وحسن ظن الناس بهم وصدقهم فيه
ما يقولون فقد خدموا دينهم وأنفسهم خدمة باهرة . وإن كان غير ذلك فأساءوا
استعمالها واستغلوا لمصالحهم الشخصية على حساب الدعوة الدينية ورجالها المخلصين
وجهودهم في سبيل نشر هذه الدعوة وقيام هذه الحكومة كما فعلت الدولة الاموية
والعباسية ودول كثيرة ، فقد ضيعوا الفرصة وخسروا دورهم ، وخسرت معهم الدعوة
التي وصلت أسبابها بأسيابهم دورها ، وما يعلم أحد متى يعود هذا الدور ، وهل

يعود أولا ؟ فقد شهد التاريخ أمما وجماعات كثيرة ضيقت فرصة حكمها وسلطانها ولم تنتفع بها وانتهى دورها القصير أو الطويل فوقفت مع المنفرجين المنعزلين وبقيت تنتظر دورها في حلبة الامة وتعض على تفريطها بنان الحسرة والندم .

هذا وإلى الحكومات الاسلامية ومن كان على رأسها أن ينهزوا الفرصة ويحرزوا نصب السبق ويبلغوا بهمتهم وعنايتهم إلى حيث لا يبلغ إليه كبار الصالحين والأتقياء بعبادتهم وزهدهم ، وذلك بما آثرهم الله من حول وطول ونفوذ وسلطان وفرص لا تتأق لغيرهم ، ولهم أن يصلوا في خدمة هذا الدين وإعادة شبابه واصلاح المجتمع وتغير اتجاهه من الجاهلية إلى الاسلام في يوم واحد - اذا أرادوا بذلك وصحت عزيمتهم وصدقت نيتهم - ما لا يصل اليه المصلحون والمؤفون والعاملون في أعوام وقرون وينالوا من رضا الله وثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ما يغبطهم عليه كثير من العباد والمؤمنين وعباد الله الصالحين . وما أطلق الناس على عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكبير والخليفة الراشد إلا بتغييره مجرى الحكومة من الجباية والهداية والاصلاحات التي قام بها وبرجولته وعصامته في سبيل مبدأه ، ولو وزن ما تنازل عنه من نعم زائل ومتاع فان ، وأنواع من لباس وطعام ودواب وأنعام - كان لا بد أن يتركها يوما من الايام - لو وزن ذلك كله عما اكتسب من نعم لا يتفد ، وقرة عين لا تنقطع وما يرجو من مرافقة محمد ﷺ وأصحابه والأتباع بحزبه وما جعل الله له من لسان صدق في ما لاخيرين لرجع ما اكتسب رجحانا واضحا وعد من كبار الأذكياء وعقلاء العالم .

